نداء إلى المثقفين العراقيين

بثينة الناصري

دَعُونا نَعْترفْ أنّنا كمثقفين لم نستطع لأسباب عديدة أن نكون قوّةً مؤثّرةً تستطيع أن تلعب دورًا فاعلاً وحيويًا ومحرّكًا في الأحداث التي مرّت على عراقنا الحبيب منذ الربع الأخير من القرن العشرين، والتي انتهت بعودة الاستعمار بأبشع صورة.

ورغم أنّ أغلبنا مازال تحت تأثير الصدمة في هذه النكبة الجديدة التي حلّت بالوطن ونحن نتفرّج ـ دون أن نستطيع أن نفعل شيئًا حقًا ـ على جنود الغزاة وهم يحتلّون بلدًا مستقلاً ذا سيادةٍ ويعلنون الانتدابَ والوصايةَ على أهله وثرواته، فإنّنا بحاجة الآن إلى أن نَجْتمع في مؤتمر عامّ ونتباحثَ في أسباب ضعفنا ونتلمّسَ عناصرَ قوّتنا ونتعاهدَ على أن نجعل من خلافاتنا الإيديولوجية قوّةً توحّد ولا تفرّق، واضعين نصبَ أعيننا هدفًا عاجلاً: وحدةَ الشعب والأرض في العراق واستقلالَهما. وعلينا أن نتعاهد على أن نكون رافدًا مهمًا ـ بكلّ الوسائل المتاحة لنا، كلٌّ في مجاله وبشكلٍ جمعيّ ـ من روافد المقاومة التي ينبغي أن تبدأ منذ الآن وحتى يتمّ تحريرُ كامل أرضنا وثرواتنا ومستقبلنا في العراق من الاحتلال الأميركيّ البريطانيّ.

إنّنا نجد أنفسنا الآن، كمثقفين عراقيين، في الخارج أو الداخل، في محنة كبيرة إزاء هذا الكابوس الذي لا نَعرف كيف نتصرّف حياله وحيال بعضنا البعض.

فنحن الذين في الخارج، الذين نَحْتضن الوطنَ كذكرى وحنين، أَخذنا باسم هذا الوطن كلَّ الفرص المتاحة: تُرجمتْ أعمالُ البعض منّا إلى لغات كثيرة، ونال بعضُنا جوائزَ الإبداع المناضل وما شابه، وفُتحتْ أمام البعض خزائنُ هيئات التمويل، وأمام البعض الآخر قاعاتُ المحاضرات في جامعات العالم. لقد عشنا، بشكل أو بآخر، في رفاهية وطمأنينة، نتقلّب بين المقاهي والمنتديات، نجترّ ذكرياتِنا. وقد أَلِفْنا الغربةَ وأَلِفَتْنا، بل صارت للبعض منّا وسيلةً للعيش. وفي الوقت نفسه كان بعضُنا يَرْعى ـ داخل ظلام النفس ـ الأحقادَ ويخطّ القوائمَ لمن ظلوا في الداخل، واصمينهم بأنّهم جميعًا «عملاءُ النظام» و«كتّابُ السلطة» الذين لا يَكتبون إبداعًا خلافًا لما نَكْتبه نحن الذين في الخارج. وكان هذا البعضُ ينتظر اللحظةَ الحاسمةَ ليعود إلى الوطن ليكتسحَ ويَمْسحَ القابعين في الداخل وليعلّمَهم كيف يكون الإبداعُ على أُصوله.

وفي الجانب الآخر، يَشْعر المبدعون الذين شاءوا أن يتمسّكوا بأرض الوطن بأنّهم يمثّلون الإبداعَ العراقيّ الحقيقيّ: فهم الذين عايشوا الوطنَ وما حلّ به من نكبات حروبٍ وقمعٍ وحصارٍ واحتلال، وهم الذين سبقوا إلى الجبهات في حروب فرضتْ عليهم، وهم الذي نَخَرَ اليورانيومُ المنضَّبُ أجسادَهم، وهم الذين جاعوا، وهم الذين شَربوا الماءَ الآسن ومات أطفالُهم بسبب الحصار بين أيديهم، وهم الذين عانوا الحاجةَ إلى ورقة يَكْتبون عليها وقلم يسطّرون به، وهم الذين إذا كَتبوا لم يجدوا مَنْ يَنْشر لهم، وهم الذينَ تلقّوا القنابلَ العنقوديةَ وصواريخَ الكروز، وهم الذين ضاعت أعمارُهم وأحلامُهم بين الحرمان والخوف والمرض، وهم الذين كانوا شهودَ عيان على اغتصاب العراق. ولهذا كلّه يشعرون أنّهم نالوا، عن جدارة، الحقَّ في أن تكون لهم الكلمةُ الأولى والأخيرةُ في المشهد العراقيّ.

وبين الداخل والخارج، والتراشقِ بالاتهامات (فهؤلاء «عملاء النظام» وأولئك «عملاء الاستعمار»)، وما بين القوائم السوداء التي يبيّتها الكلُّ للكلّ، لا بدّ أن نتوقّف لنتساءل: هل يجب أن تستمرَّ هذه الحلقةُ الدمويةُ إلى الأبد؟

إنّنا جميعًا، أينما كنّا، جزء من العراق.. لا فرق. فهؤلاء الذين في الداخل يعيشون في الوطن، وأولئك الذين في الخارج يعيش الوطنُ فيهم. إنّ الكلّ في الأصل واحد، والثقافة العراقية واحدةٌ لا تتجزّأ.

دعونا، إذن، نقفْ جميعًا في خندق الوطن لئلاّ يضيعَ منّا ونحن نتفرّج. دعونا نتسامَ على الضغائن والمرارة. ولنجتمعْ لنتدارسَ ونقرّرَ أدوارَ كلٍّ منّا، أينما كان موقعُه، لأنّ المسؤولية ينوء بها كاهلُنا فرادى. ولنتباحثْ كيف يمكن أن نَخْدم قضيّتَنا، وكيف يمكن أن نخاطبَ المؤسسات والهيئات الثقافية والبرلمانية العربية والإقليمية والدولية لمساعدتنا ودَعْمنا من أجل تحقيق الأهداف التي

نداء إلى المثقفين العراقيين

أَقْترحُها عليكم (والخاضعةِ طبعًا لتعديلاتكم وإضافاتكم). وهي على المدى القريب والبعيد كما يلي:

ـ إنهاءُ الاحتلال الأميركيّ البريطانيّ، ومغادرةُ آخر جنديّ أجنبيّ أرضَ العراق.

ـ رفضُ اعتبار مقاومة المحتلّ والمعتدي داخل حدود الوطن إرهابًا، وإنّما هي عمل من أعمال الوطنية والسيادة التي تُقرّها جميعُ القوانين والأعراف.

ـ رفضُ إقامة قواعد عسكرية أجنبية على أيّ شبر من أرض العراق، واعتبارُ مقاومةِ ذلك حقًّا مشروعًا لكلّ العراقيين الذين يَرْفضون أن يحوّل العراقُ إلى منطلقٍ للعدوان على الدول العربية الشقيقة أو المجاورة أو على أيّ دولةٍ في العالم من أجل تكريس الهيمنة الأميركية والصهيونية العالمية.

ـ إشرافُ الأمم المتحدة واتّحادِ البرلمانيين العرب واتّحاد البرلمانيين الدوليّ على انتخابات حرّة في العراق لتشكيل حكومة وطنية دون إملاء أو تدخُّل خارجيّ.

ـ رفضُ أن يقوم أجانب بكتابة دستورنا العراقيّ، لاسيّما بعد أن نُشِرَ أنّ يهوديًا أميركيًا سيكلَّف بالإشراف على ذلك!

ـ حمايةُ علماء العراق بكلّ الوسائل الممكنة، ورفضُ ووقفُ ملاحقتهم أو اعتقالِهم أو الضغطِ عليهم بأيّ شكلٍ أو إيذائهم بدنيًا أو معنويًا؛ فهم ثروةُ العراق، حاضرًا ومستقبلاً.

ـ المساعدةُ في رفع دعاوى تعويضٍ لضحايا الشعب العراقيّ وممتلكاته المسروقة والمهدورة والمدمَّرة، من جراء الاستخدام المفرط لأسلحة دمارٍ شامل، ولأسلحةٍ محرَّمةٍ دوليًا، ومن جراء تجريبِ أسلحةٍ جديدةٍ على البشر والبيئة في العراق، وكذلك من جرّاء العقوبات والاحتلال.

ـ رفضُ تغيير مناهجنا التعليمية بما يؤدّي إلى طمسِ الهوية، وتغييرِ التاريخ، وإضعافِ الانتماء إلى الوطن والأمة العربية، وإطفاءِ روح المقاومة، وتهميشِ لغتنا العربية لصالح لغات أجنبية، والخلطِ بين المفاهيم بحيث يصبح الأعداءُ أصدقاء والأشقاءُ أعداء.

ـ مراقبةُ إجراءات إعادة كافة الآثار والمخطوطات العراقية المسروقة، وتجريمُ حيازتِها وبيعِها وتداولِها بأيّ شكل من الأشكال، والمساعدةُ في ترميم الآثار التي تضرّرتْ بفعل هذا العدوان والاحتلال وتداعياته.

ـ حريةُ إصدار الصحف المستقلة وإنشاءِ محطّات إذاعة وتلفزيون أهلية يُسْمح فيها بحقّ النقد والرأي الآخر.

ـ دعمُ المثقفين العراقيين داخل العراق بكلّ الأشكال؛ فهُمُ العمودُ الفقريُّ في إعادة بناء الوطن.

ـ المساعدةُ على نشر أو إعادة نشر الإبداع العراقيّ الذي يؤكّد ويَحْفظ عظمةَ هذا الإبداع في مختلف مراحل الحضارات التي قامت على أرض الرافدين.

◆ ◆ ◆

إنّنا، كمثقفين عراقيين، بحاجة إلى أن نجتمع في مؤتمر عامّ لنتدارس كيف نجعل نضالَنا جزءًا من نضال المثقفين الأحرار في العالم من أجل التصدي للاحتلال والهيمنة بكلّ الوسائل المتاحة. إنّنا بحاجة إلى الاجتماع لنكون قوةً واحدةً مؤثّرةً ضدّ العدوان والحروب وسرقة الأوطان وهيمنةِ القطب الواحد، الذي استخدم أرقى ما وصل إليه الإنسانُ من علم ليَصْنع آلاتِ دمارٍ تَفْتك بالبشر والبيئة وليعودَ بنا إلى عصور الهمجية وشريعةِ الغاب، مدمّرًا كلَّ جهود أجدادنا وآبائنا الذين أراقوا الكثيرَ من العرق والدماء على مدى آلاف السنين لكي يصنعوا حضاراتٍ عظيمةً وحياةً تليق بالبشر.

القاهرة

بثينة الناصري

كاتبة عراقية تعيش في القاهرة.